وأخيـرًا، فقـد سـبقت الإشـارة إلـى أن قطعـة "طـراز إفريقيـة" سـابقة التناول، تُعد –كما تقدم– أقدم قطعة نسيج ورد عليها كلمة "طراز"، فما هو الطراز؟

الطـــراز:

الطراز كلمة معربة من الكلمة الفارسية "ترازيدن"، ومعناها التطريز، ثمَّ اتسع مدلولها وأصبحت تعني شريط الكتابة المنسوجة أو المطرزة على الثوب، ثم اتسع مدلولها أكثر فأصبحت تُطلق على المصنع الذي تُطرز فيه هذه الأشرطة.

ومن المرجح أن يكون الغرض من شريط الطراز في المنسوجات – التي نحن بصددها– هو إثبات التاريخ، ومصنع الطراز الذي نسجت فيه قطع القماش، وليس مجرد الزخرفة. وقد كانت هذه الكتابة، أو شريط الطراز، تقتضيها عادة الخلع التي كانت متبعة في الدولة الإسلامية.

وقد اختلف المؤرخون القدماء والعلماء المحدثون، في تعيين الموطن الأصلي الذي نشأت فيه مصانع الطراز، وانقسموا إلى فريقين:

الفريق الأول: وعلى رأسه "ابن خلدون"، يرى أن مصانع الطراز فارسية الأصل، لأنه كان من عادة ملوك إيران قبل الإسلام، أن يزينوا ملابسهم بصور الملوك، وبأشكال معينة تمييزًا لها عن غيرها.

ولكن ثمة اعتراض من بعض العلماء على هذا الرأي، ويرون أنه مبني على الافتراض والتخمين، ويخلو من الدليل، وأن "ابن خلدون لم يورد أي نص يدعم به رأيه.

الفريق الثاني: وكان على رأسهم العالم "كرابك"، والدكتور "كونل"، فاتجها إلى مصانع "جينسيم" في مصر البيزنطية، فوجدا قطعًا من النسيج المصري عليها أسماء بلاد وأشخاص، وكانت هذه المصانع تحتفظ بسر نظام العمل بالنسبة إلى بعض الأقمشة الغالية، وقد ذهب أصحاب هذا الفريق إلى أن مصانع "جينسيم" البيزنطية، كانت بمثابة النموذج الأصلي للطراز الإسلامي.

على أية حال، فقد أجمع علماء الفنون الإسلامية؛ اعتمادًا على ما ورد في المصادر التاريخية، وما عُثر عليه من الأدلة المادية، أن دور الطراز في العصر الإسلامي نشأت في عهد الدولة الأموية، ولكنهم اختلفوا في تحديد اسم الخليفة الذي ظهرت مصانع الطراز في عهده.

وقد سبق أن عرفنا أنه وصلنا قطعة نسيج محفوظة في متحف "فكتوريا وألبرت" بلندن، منسوج عليها "طراز إفريقية"، واسم الخليفة "مروان"– مروان بن محمد– كما وصلنا قطعة أخرى محفوظة في متحف "وسنجتن" منسوج عليها أيضًا اسم الخليفة "مروان"، وبناء على ذلك رجح بعض العلماء أن أول خليفة كانت عنده ملابس عليها "طراز" هو "مروان بن محمد"، "مروان الثاني" (127– 132 هـ).

ولكن هناك فريق آخر من العلماء يرون أن أقدم قطعة نسيج إسلامية معروفة إلى الآن، عليها شريط طراز، هي قطعة النسيج المحفوظة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، التي تُعرف بـ "عمامة سمويل بن موسى"، والمؤرخة بعام (88 هـ)، أي أنها ترجع إلى عهد

الخليفة "الوليد بن عبد الملك"(86-96 هـ)، ذلك الخليفة الذي نقلت في عهده الدواوين من القبطية إلى العربية.

وأيًا كان الأمر، فيهمنا أن نعرف أن دور الطراز، ظهرت في الدولة الإسلامية، خلال العصر الأموي، ثمَّ تطورت هذه المصانع وازداد تنظيمها فيما بعد خلال العصر العباسي، ثمَّ في العصر الفاطمي.

وقد عرفت كل أقاليم الدولة الإسلامية- بما فيها مصر- نوعين رئيسين من الطراز، أو مصانع النسيج، وهما:

- **طراز الخاصة**: أي المصانع التي تقوم بإعداد نسيج الخلفاء، والسلاطين، وكبار رجال الدولة، هذا بالإضافة إلى كسوة الكعبة.
- **طراز العامة**: أي المصانع التي تقوم بعمل نسيج عامة الشعب، فضلاً عن إمداد بلاط الخليفة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وقد كانت هذه المصانع تخضع أيضًا لرقابة الدولة.

ثانياً: الأبسطة

"الأبسطة" (Carpets) مصطلح واسع المدلول، يهمنا منها حاليًا بصفة خاصة ما يُبسط على الأرض، وإذا كان كل ما يُبسط على الأرض يقال له "بساط"، فسيقتصر حديثنا في هذا المقام على نوع من الأبسطة يُعرف باسم "الطنافس" (Pile Carpets)، ويُقصد بها الأبسطة ذات الخمل أو الوبر، المنسوجة من الكتان، والصوف، والقطن، والحرير.

كما أود الإشارة إلى أن الذي دعانا لاستخدام كلمة "طنافس"، بدلاً من كلمة "سجاد"، يرجع في المقام الأول إلى أن كلمة "سجاد" ترتبط دون غيرها بالسجود أثناء الصلاة، وإن كان من الملاحظ أن الأمر كاد أن يستقر حاليًا على استخدامها في هذا النوع من الفنون، رغم توافر المصطلحات التي تؤدي إلى ذات الغرض بشكل أكثر دقة.

على أية حال؛ فيحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، بجزأين من طنفستين ترجعان إلى العصر الأموي، سوف نقوم بدراستهما بشيء من

وخيوط السدى في هذه القطعة من الكتان، واللحمة للنسيج التحتي من الكتان أيضًا، أما الوبرة فهي من خيوط الصوف المتصل السطح، ويُؤخذ في عين الاعتبار أن هذه القطعة من النوع غير المعقود.

ومن الجدير بالذكر أن أهمية هذه القطعة، تكمن في أن كتابتها، التي تشير إلى أن مصر كانت مركزًا لإنتاج الطنافس في هذه المرحلة الإسلامية المبكرة من تاريخها الإسلامي.

القطعة الثانية:

تحتوي هذه القطعة على زخارف قوامها، في المتن (Field) جزء من طائر محور أقرب ما يكون إلى الطاووس، ومن أسفله سطر كتابي، بخط كوفي نصه: "لرحمن... بن سديج"، وأسفل هذه الكتابة شريط ضيق؛ عليه زخرفة قوامها حرف (T) قائمًا أو مقلوبًا بالتبادل، وأسفل هذا الشريط الحاشية (Border)، وتحتوي على وريدات محورة (شكل 2).

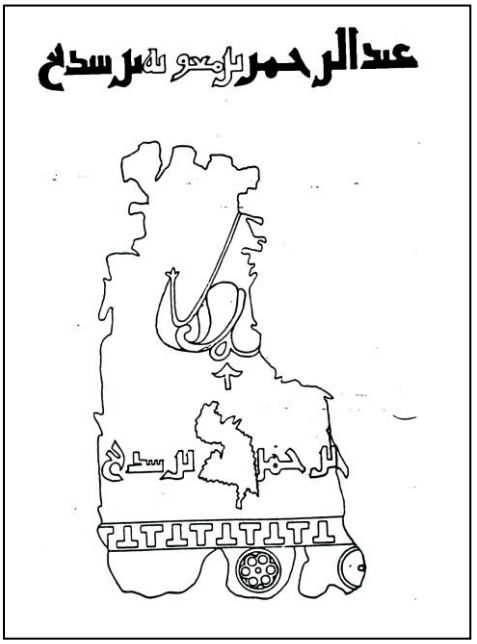

(شكل 2)

ومن الملاحظ أن زخارف القطعة محل التناول، وثيقة الصلة بالزخارف والرسوم المعاصرة، حيث إن رسم الطائر عليها – الطاووس– قريب في هيئته من بعض الرسوم المشابهة التي وردت على المنسوجات المصرية في عصر الانتقال، ومن الجدير بالذكر أن رسوم الطواويس هذه كانت من العناصر الزخرفية المعروفة في الفن الساساني، وفي الفنين البيزنطي، والقبطي.

أما فيما يتعلق بالزخرفة التي على هيئة حرف (T)؛ فهي تذكرنا بشارة المسيحية المحورة التي ظهرت على الدنانير البيزنطية، التي ضربت خلال تعريب السكة، على يد الخليفة "عبد الملك بن مروان" (74- 77 هـ)، حيث تم حذف رأس الصليب فأصبح على هيئة حرف (T).

ومن ناحية أخرى فإن الوريدات التي ظهرت على هذه القطعة، ذات صلة وثيقة بالزخارف الهلينستية؛ التي نُفذت على المنسوجات المعاصرة في مصر.

والسدى في هذه القطعة من خيوط الكتان غير المصبوغ، ومبروم إلى جهة اليسار (S) واللحمة من خيوط الكتان المصبوغ، ومبروم إلى اليسار (S) أيضًا، وهذه الطنفسة –كما يرى أحد العلماء– من النوع الوبري المعقود، حسب طريقة العقدة التركية المعروفة باسم "جورديز" (شكل 3).

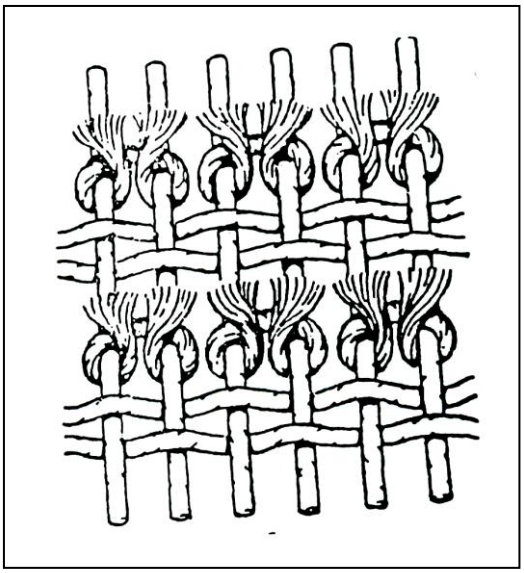

(شكل 3)

ويلاحظ أن المواد الخام في هاتين الطنفستين، لا يخرجان عن الكتان، والصوف، وهما المادتان السائدتان في مصر، كما أن أسلوب البرم في القطعة الثانية جاء إلى جهة اليسار (S)، وهو أسلوب مصري صميم في برم خيوط النسيج، أما العقد فإن القطعة الثانية معقودة – كما يرى أحد العلماء– بالطريقة التركية المعروفة بـ "عقدة جورديز".

إذًا فقد عرفت مصر منذ العصر الأموي صناعة أبسطة ذات خملة معقودة– طنافس، فما هو أصل هذا النوع من الفنون؟

الحق أنه على الرغم من اختلاف الآراء حول أصل موطن هذا النوع من الفنون، فقد بات من المتفق عليه أن أصل موطنه هو التركستان الشرقية بآسيا الوسطى، حيث عُثر في منطقة "طرفان" على قطع صغيرة من الطنافس، ترجع إلى المدة الواقعة بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين، وكانت الخملة فيها مكونة من خصل من الصوف معقودة حول خيوط السدى، وهي الطريقة نفسها التي اتبعت فيها بعد في عمل الطنافس الإسلامية المختلفة في العصور الوسطى، سواء كانت تركية، أو إيرانية، أو قوقازية، أو مصرية، أو هندية، أو أندلسية.

ومن الأمور اللافتة للنظر، أن إحدى القطعتين الأمويتين – السابق دراستهما– كانت من النوع ذي الخملة المعقودة حول خيوط السدى، أي أنها تسير وفق الطريقة التي اتبعت في منطقة "طرفان" بالتركستان

الشرقية، وهو أمر استرعى نظر أحد العلماء ودعاه أن يتساءل عما إن كانت هذه القطعة مستوردة ولم تصنع في مصر، إذ أن العثور عليها في الفسطاط لا يقطع بمصريتها، ولكن اتضح من خلال زخارفها، وكتاباتها، وألوانها، أنها مصرية بدون شك، وقد دعته تلك النتيجة أن يتساءل مرة أخرى عما إن كان قد جاء إلى مصر في أوائل العصر الإسلامي من أواسط أسيا من يحذق صنع الطنافس، وعمل الخملة على السدى، ونشر هذه الصنعة في البلاد، ثمَّ أقبل بعض المصريين على استعمالها؛ حيث وجدوها أيسر وأسهل من طريقتهم القديمة، فأقبلوا عليها حتى طغت على طريقتهم القديمة وحلت محلها.